إبليس في التراث الأدبي الإسلامي

د. عادل ايت العسري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية/مراكش

تاريخ الإرسال:2020-08-22	تاريخ القبول: 2020-09-03

ملخص:

لم يقتصر الحديث عن إبليس على المدونة الدينية فقط بل حضر أيضا في الأدب الإسلامي، غير أن الطبيعة التخييلية لهذا المجال سمحت للأدباء بمقاربة شخصية إبليس بشكل مغاير لمقاربة النصوص الدينية حيث أنهم تحرروا، نسبيا، من القيود الدينية التي كانت تحكم الحديث عن الأمور المتعلقة بالعقيدة بما في ذلك الأمور الغيبية. وسنحاول في هذه الدراسة الكشف عن الصورة التي ظهر بها إبليس في التراث الأدبي الإسلامي.

كلمات مفتاحية:

إبليس؛ التراث الأدبي الإسلامي؛ التخييل؛ الشياطين.

Abstract:

Satan was one of the most prominent subjects in Islamic religious texts, but he was also present in literature. However, the imaginative nature of this field allowed writers to approach the personality of Satan in a different way than scholars, as they were relatively free from the religious restrictions that governed discussion of matters relating to belief, including in these metaphysical questions. In this study we will try to uncover the image that Satan appeared in the Islamic literary heritage

Keywords: Satan; Islamic literary; heritage.

البحث:

آمن الإنسان منذ قديم الزمن بوجود كائنات غير مرئية تشاركه الحياة على وجه الأرض، وقد عزا إليها كثيرا من الظواهر التي عجز عن تفسيرها. واعتقد الإنسان البدائي أن تلك الكائنات لا تخرج عن التصنيف الذي يخضع له البشر أنفسهم؛ فقسم تلك الأرواح إلى خيرة وأخرى شريرة، وكانت هذه الأخيرة-في نظره- هي المسؤولة عما يلحق الطبيعة من كوارث أو ما يمس الإنسان من مصائب ومحن وعلل، وقد عمل على تفادي أذاها من خلال صنع التعويذات أو تقديم القرابين لها. ومع مرور الزمان، اختزل الإنسان مصدر الشر في كائن واحد هو الشيطان.

يعتقد أن كلمة (شيطان) ذات أصول عبرية، وأنها وردت أول مرة عند اليهود في سفر أخبار الأيام الأول[1] بيد أن العقاد يرى أن تلك الكلمة ظهرت في اللغة العربية أولا؛ إذ إن الجذر اللغوي الذي اشتقت منه كلمة شيطان[2] تدل على أنها كانت متداولة قبل اليهود[3]. وتحضر هذه الكلمة في الديانات السماوية الثلاثة، وهي تأتي غالبا مرادفة «للصفة الجهنمية التي تنطوي على الخبث والبراعة، وحب الأذى والتمتع

[1] كريم الهاني، فكرة الشيطان في اليهودية 2\4، مجلة مرايانا، 16 أكتوبر 2018
https://marayana.com/launе/2018/10/16/2585/

[2] جاء في مادة ش-ط-ن: الشَّطَن: الحبل، والجمع أشطان. ورجل شاطن، إذا كان خبيثاً، زعموا؛ ومنه اشتقاق الشيطان. فأما قولهم: شَطَنَ عنّا، في معنى بعُدَ، فصحيح. وشَطَنَتِ الدارُ شُطوناً، إذا بعُدت. ونوًى شَطونٌ، أي بعيدة. واختلفوا في اشتقاق الشيطان، فقال قوم من أهل اللغة: اشتقاقه من شاط يَشيط وتشيّط، إذا لفحته النارُ فأثّرت فيه، والنون فيه زائدة. قال الراجز:
كشائطِ الرُبِّ عليه الأشْكَلِ (جمهرة اللغة، ج 2، ص 219)

[3] عباس محمود العقاد، إبليس، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014، ص 32.

بالإيذاء»[1]. لكن الإسلام امتاز عن الديانتين اليهودية والمسيحية بذكر رئيس الشياطين وكبيرهم أو الشيطان الأول أي إبليس.

لم يقتصر ذكر إبليس، في الثقافة الإسلامية، على النصوص الدينية أو الكتابات المتصلة بها من تفاسير أو مدونات فقهية بل ورد أيضا في النصوص ذات الطابع التخييلي سواء أكانت شعرا أم نثرا بأنواعه المختلفة من أدب عجائبي ومنامات ومناظرات، وسنحاول في هذه الدراسة تحديد الصور المختلفة التي اتخذها إبليس في هذه المدونة التخييلية الإسلامية بشقيها العربي والفارسي.

1-إبليس الغَرور:

يرى ابن منظور أن إبليس مشتق من فعل أبلس «أي يئس وندم، ومنه سمي إبليس وكان اسمه عزازيل، وفي التنزيل العزيز يومئذ يبلس المجرمون، وإبليس لعنة اللَّه مشتق منه؛ لأنه أبلس من رحمة اللَّه أي أويس، وقال أبو إسحق لم يصرف لأنه أعجمي معرفة» [2].

وقد اختلف العلماء والفقهاء في صفته وطبيعته؛ فمنهم من ذهب إلى أن «اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل، وكان من سكان الأرض، ومن أشد الملائكة اجتهادا، وأكثرهم علما، وكان من حي يقال لهم الجن»[3]، وكان ابن عباس يقول: «إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له

[1] المصدر نفسه، ص31.

[2] ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2، 2009، ج 6، ص 35.

[3] ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف بيروت، 1990، مج1، ص55.

سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض»[1] . وممن تبنوا هذا الرأي أبو الوفا علي ابن عقيل الذي يقول: « إن قيل لك: إبليس من الملائكة أم لا؟ فقل: من الملائكة خلافا لبعض أصحابنا. وبهذا قال أبو بكر عبد العزيز: لأن الباري سبحانه قال: وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، والاستثناء لا يكون من غير الجنس. هذا هو المشهور في لغة العرب بدلالة أنه لا يحسن أن يقول القائل: فتح الخبازون إلا فرنا، ويريدون فلانا الحداد» [2]، أما الحسن البصري فذهب إلى أن إبليس ليس من جنس الملائكة، وأنه بمثابة الأصل الذي تفرع عنه الجن[3].

وإذا كان العلماء قد اختلفوا بخصوص طبيعة إبليس وجنسه، فإنهم اتفقوا بخصوص صفاته التي استنبطوها من النصوص الدينية خصوصا القرآن الكريم الذي كشف حقيقة إبليس، وحذر الإنسان منه ومن حبائله. وقد كان هذا أحد الجوانب التي توقف عندها التراث الأدبي الإسلامي.

أ–غواية الإنس والجن:

جاء في أحد الأخبار أن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان كان نائما في قصره، فإذا بشخص أيقظه ثم اختفى، فاستيقظ الخليفة غاضبا متوعدا هذا الذي تجرأ على إيقاظه، وأخذ يبحث في أطراف القصر عن ذلك المتطفل، فوجده وراء أحد الأبواب وهو يخفي وجهه خلف ستار، فقال له الخليفة: «هه، من أنت؟ وما اسمك؟ قال: اسمي مشهور، إبليس الشقي. قال: ولماذا أيقظتني جادا؟ أصدقني القول، ولا

[1] ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، دار الكتب العلمية،2011، ج1، ص56.

[2] عبد الله الشبلي، أكام المرجان في أحكام الجان، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 2013، ص 149.

[3] ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعرف، بيروت، ط1، 1990، ج1، ص55.

تقل على العكس والضد. قال: لقد حان وقت الصلاة آخرا، وعليك أن تمضي سريعا نحو المسجد.. قال: لا، لا، لم يكن هذا هو غرضك، أن تكون دليلي إلى الخيرات»[1].

إن ما يثير الانتباه في هذا الخبر هو أن إبليس لم يخف هويته عن السائل بل صرح،دون تردد، باسمه المشهور غير أنه جعله مقترنا بصفة الشقاوة أي التعاسة والحزن، ويلاحظ أن الخليفة لم يسأل إبليس عن سبب شقاوته مما يوحي أنه أمر معلوم للجميع، وأنها صفة طبيعية وملازمة لهذا المخلوق. وإذا كان الخليفة لم يشك في هوية الرجل المتخفي وراء الباب غير أنه كان متوجسا وغير مطمئن للسبب الذي دعاه إلى إيقاظه في هذه الساعة المبكرة، حيث إنه كان متأكدا أن إبليس سيكذب– لا محالة– وبأنه سيقول خلاف ما يبطنه، وهو ما جعل معاوية يلح على مخاطبه بألا يقول (العكس والضد). وهنا سيفاجئ إبليس الخليفة بأنه إنما جاء طلبا للخير؛ فخلافا لما هو متعارف[2]، حذر إبليس الخليفة من خروج وقت صلاة الصبح، ودعاه إلى حث الخطى إلى المسجد كي يدرك ثواب الصلاة مع الجماعة، بيد أن الخليفة استنكر أن تكون الدعوة إلى الخير صادرة عن منبع كل الشرور. وقد حاول إبليس إزالة شك مخاطبه، فدخل معه في جدال طويل، ساق فيه أدلة متعددة تؤكد صدق دعواه، لكن الخليفة ظل متمسكا بموقفه؛ لأنه يعلم أن إبليس أغوى أقواما وأفرادا سابقين وتلاعب بهم، واستدرجهم بحيله ومكره كما هو الحال بالنسبة لقوم نوح وقوم

[1] جلال الدين الرومي، مثنوي، ترجمة وتحقيق إبراهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة، الكتاب الثاني، ط1، 1997، ص 223.

[2] جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ مَكَانِ كلّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ الله انْحَلّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضّأَ انْحَلّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلّى انْحَلّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيّبَ النّفْسِ وَإِلاّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النّفْسِ كَسْلاَ.

لوط وفرعون وأبي لهب[1]. ولم يكن تردد الخليفة ليثني إبليس عن مراده حيث ظل يستعرض حججا مختلفة لدرء تهمة الكذب والاحتيال عنه. وقد أدرك الخليفة أن استمراره في الجدل مع إبليس سينتهي به إلى الوقوع في شراكه والاقتناع برأيه لامحالة، لذلك حاول أن ينهي الحوار مشبها حالهما بالتجار؛ فالخليفة تاجر حقيقي بينما إبليس قاطع طريق يتخفى في زي تاجر، ف «كما أن قاطع الطريق لا يكون مشتريا من أحد، وإن أبدى الشراء، فمكر وحيلة»[2].

وقد اضطر إبليس، نتيجة تمسك الخليفة بموقفه، إلى الاعتراف بالدافع الحقيقي وراء مجيئه، فهو إنما أيقظ الخليفة حتى لا يشعر بالندم بعد خروج وقت الصلاة، وكي لا يتحسر على التفريط في الطاعة، فذلك التحسر والندم الصادران عن قلب صادق يقربان–حسب إبليس– العبد من الله، فيكون أجرهما بأجر مئة صلاة[3]. وهنا سيدرك الخليفة أن إيقاظ إبليس له إنما كان في الواقع تنويما له، وبأنه لم يدعه إلى خير إلا ليصرفه عن خيرا أسمى وأفضل[4].

لم يكن إغواء إبليس مقصورا على العباد الصالحين بل شمل أيضا العصاة والمذنبين ومن بينهم الشاعر أبو نواس الذي اشتهر بحب الخمر والإقبال على اللهو والمجون.

كان أبو نواس جالسا في إحدى حانات بغداد وهو يمعن النظر إلى أحد الغلمان الذي يسقيه الخمر، وكان الغلام قد أفرط في الشرب حتى فقد وعيه، فلم يعد يجد

[1] جلال الدين الرومي، مرجع سابق، ص. ص 226-227.
[2] المصدر نفسه، ص 230.
[3] جلال الدين الرومي، مرجع سابق، ص. ص234 - 235.
[4] المصدر نفسه، ص 236.

حرجا في أن يلاطفه الشاعر أو يقبله، وفي هذه اللحظة سيظهر إبليس للغلام، وعن ذلك يقول أبو نواس[1]:

دَبّ لهُ إبليسُ، فاقْتادَهُ	والشيْخُ نَفّاعٌ على لَعْنتِه
عجبتُ من إبليسَ في تيهِهِ	وخُبْثِ ما أظْهَرَ من نيّتِهْ
عَلى آدَمَ في سجْدَةٍ	وصَارَ قَوّاداً لِذُرّيتِهْ تاه

لقد تبدى إبليس للغلام في صورة شيخ وقور مد له يده ليسنده ويقوده، وهو ما أثار استغراب الشاعر ودهشته.

لا يدرك الغلام أن الشيخ يبدي خلاف ما يضمر. وهو ما سبق أن حدث مع آدم، إنها القصة نفسها تتكرر مع إبليس لكن هذه المرة مع ذريته التائهة التي تستنجد، في لحظات الضعف والغفلة، بأي شيء حتى لو أدى إلى هلاكها؛ فالغلام لم يكن يعلم أن الشيخ إنما مد له يده ليدفعه نحو الهاوية حتى إذا تحقق ذلك، وأيقن إبليس أن ابن آدم هالك لا محالة، تركه لحاله وتبرأ منه، وعن ذلك يقول الفرزدق مخاطبا إبليس[2]:

فَقُلْتُ لَهُ: هَلاّ أُخَيَّكَ أخرَجَتْ يَمِينُكَ مِنْ خُضرِ البُحُورِ طَوَامِ
رَمَـــيْتَ بِهِ في اليَمّ لَمّا رَأيْتَهُ كَفِرْقَةِ طَوْدَيْ يَذْبُلٍ وَشَمَامِ
فَلَمّا تَلاقَـى فَوْقَهُ المَوْجُ طَامِياً نَكَصْتَ، وَلَمْ تَحْتَلْ لَهُ بمَرَامِ

[1] أبو نواس، ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، 1982، ص 125.
[2] الفرزدق، ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 1987، ص540.

ألمْ تَأتِ أهلَ الحِجرِ والحِجرُ أهلُهُ بأنْعَمِ عَيْشٍ في بُيُوتِ رُخَامِ

فهذه هي عادة إبليس مع كل من أطاعه، وهذه القدرة على الغواية والمكر لم يسلم منها الجن، ففي رسالة الغفران، التقى المعري مع جني يدعى أبا الهندريس الذي أنشده أبياتا أقر فيها بأن إبليس سخر الجن لإغواء البشر، حيث يقول هذا الجني[1]:

نحارب الله جنوداً لإبـ ـليس أخي الرأي الغبين النَّجيس

نسلِّم الحكـم إليه إذا قاس، فنرضى بالضَّلال المقيس

فالجن كانت أداة طيعة وظفها إبليس للانتقام من البشر، فهو إذا لم ينتقم منهم مباشرة سلط عليهم جنوده وأتباعه. وهو لا يمل ولا ييأس من الوسوسة، ولا يرضى لعبد بأن يتوب من ذنوبه، وهو ما وقع مع أبي نواس الذي قرر في أحد الأيام أن يقلع عن المعاصي، وأن يبدأ صفحة جديدة، فتراءى له إبليس هابطا من السماء، وعن ذلك يقول الشاعر[2]:

رأيتُهُ في الجَوّ مُسْتَعْلِياً	ثـمّ هوَى يَتْبَعُـهُ نَجْمُ
أرادَ للسّمعِ اتـراقاً	فَما عَتّمَ أنْ أهْبَطَهُ الرّجْمُ
فقـالَ لي لما هوَى	مَرْحَباً بتائِبٍ تَوْبَتُهُ وَهْمُ

[1] أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، ط9، 1977، ص 300.

[2] أبو نواس، مرجع سابق، ص554.

لقد أقبل إبليس على الشاعر في لحظة التوبة، ولم يحاول أن يصده؛ لأنه يعلم أن توبة أبي نواس زائفة، وأنه سيرجع إلى ضلاله آجلا أم عاجلا. ولما أبدى الشاعر توبة صادقة، عرض إبليس عليه مجموعة من المغريات المحببة إلى نفسه؛ فقد أغراه بالخمر الشهية وبالغلام الأمرد وبالطرب والموسيقى، فما كان من الشاعر إلا أن ظل متمسكا بموقفه بيد أن إبليس ظل محتفظا بهدوئه، وقال للشاعر[1]:

ما أنا بالآيسِ مِن عَوْدَة	منكَ، على رغْمِكَ يا فَدْمُ
لَستُ أبا مُرّةَ ، إنْ لَمْ تَعُدْ	فغَيرُ ذا من فعلكَ الغشْمُ

يكشف هذان البيتان أن إبليس (أبا مرة) كان واثقا من ضعف أبي نواس؛ فهو يعرف الشاعر أكثر من نفسه، ولذلك كان موقنا من عودة الشاعر إلى حياة اللهو والمجون، وثقة ابليس لم تأت من فراغ، فهي تستند إلى تجربة الغواية الطويلة مع أفراد وأمم سابقين، تجربة اكتسب معها إبليس خبرة بنفوس الناس ونقط ضعفهم حتى أيقن أن كل من وقع في حباله لن يستطيع أن التخلص منها.

ب–الشباك:

تتعدد أساليب غواية إبليس، وهي تختلف باختلاف السياق، ولما كان الإنسان بطبيعته محبا للحياة متمسكا بها، كارها لمفارقتها، فقد فطن إبليس إلى هذه الرغبة، واستخدمها مدخلا لغواية البشر كما وقع مع آدم وحواء، وهي الحيلة نفسها التي ظل

[1] المصدر نفسه، ص 555.

يوظفها مع ذريتهما، ومن بينهم الشاعر الفرزدق الذي يقول في سياق وصف تجربته في الحياة [1]:

ألا طالَ مَا قَدْ بِتُّ يُوضِعُ نَاقَتِي أبُو الجنّ إبْلِيسٌ بِغَيرِ خِطَامِ
يُبَشِّرُنِي أنْ لَنْ أمُوتَ، وَأنّهُ سَيُخْلِدُنِي في جَنّةٍ وَسَلامِ

لقد نظم الشاعر هذه القصيدة وهو في السبعين من عمره عندما أحس بدنو أجله، وفي هذه الحظة سيظهر له إبليس، فيعده بأن يمد في عمره بل وعده بأنه سيقضي بقية حياته في عيشة رغدة شرط أن يظل الشاعر على النهج الذي سار عليه في الماضي أي العيش في الضلالة[2]، لكن الفرزدق كان متيقضا، ولم ينسق إلى دعوة إبليس؛ لأن تجربته في الحياة أبانت له بأن وعود إبليس كاذبة وزائفة، وخير دليل على ذلك وعده لأب البشر وزوجته حواء، وعن ذلك يقول الفرزدق[3] :

وَآدَم قَدْ أخرَجْتَهُ، وَهوَ ساكِنٌ	وَزَوْجَتَهُ، مِنْ خَيرِ دارِ مُقَامِ
وَأقْسَمْتَ يا إبْلِيسُ أنّكَ ناصِحٌ	لهُ وَلَهَا، إقْسَامَ غَير إثَامِ

[1] الفرزدق، مرجع سابق، ص 540.

[2] إن اتباع الفرزدق لإبليس لا يتعلق بالمجون أو الزندقة أو الانحلال الأخلاقي بل يرتبط بمذهبه في الشعر حيث كان يميل إلى هجاء خصومه والتعريض بهم، ويروى أن الفرزدق أتى الحسن البصري فقال: هجوت إبليس فاسمع، قال البصري: لا حاجة لنا بما تقول، فقال الفرزدق: لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس عن الحسن البصري ينهى عن هجاء إبليس، قال البصري: أسكت، فإنك بلسانه تنطق.

[3] الفرزدق، مرجع سابق، ص 541.

ومن المنافذ التي استغلها إبليس للإيقاع بالناس منفذ الجهل، فقد روى شهاب الدين الأندلسي حكاية طريفة لأحد الأولياء الذي التقى بإبليس، فحاول هذا الأخير الإيقاع بالولي الصالح، لكنه فشل، وقد استغل الولي الفرصة ليسأل إبليس عن سبب فشله، فأجابه بأن قدرته على الغواية إنما تقتصر على الجهلة دون العارفين، ودعم إبليس ذلك من خلال تجربة ملموسة أمام الولي، حيث انطلقا معا حتى لقيا أجهل العباد على وجه الأرض، فسأله إبليس قائلا: «هل الله قادر على أن يدخل الجمل في سم الخياط أو لا؟ فتوقف وتحير وأغلق الباب. فقال إبليس للولي: ها هو قد كفر بالشك في قدرة الله»[1]. ثم انطلقا بعد ذلك إلى رجل قليل العبادة لكنه عالم بالله، فسأله إبليس السؤال السابق، فأجابه الرجل قائلا: «أتشك في قدرة الله تعالى أن يوسع سم الخياط حتى يدخل فيه الجمل، أو أن يرقق الجمل حتى يصير كالخيط فيدخل في سم الخياط؟! فانصرفا، وقال إبليس لرفيقه: معرفة هذا بالله تمحو ذنوبه، وحاله خير من العابد الجاهل بالله»[2].

تشير هذه الحكاية إلى أن منظور إبليس للأشياء يخالف منظور البشر؛ فالناس ترفع من شأن العابد الناسك المجتهد في العبادات، وترى فيه رمزا للتقوى بينما ينظر إبليس إلى بواطن الأمور وإلى قلب الإنسان، فإن وجد فيه ذرة جهل، علم أن صاحبه إنما يعبد الله عبادة طقوسية مبنية على الشك، في حين أن الإنسان العارف بالله –مع قلة عبادته– يكون قد أسس علاقته بالله على ركيزة قوية لا تتزحزح، ولذلك فمثل هذا الرجل يستحيل على إبليس أن يضله.

[1] ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق محمد ناجي بن عمر، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 2008، ص 470.

[2] ابن حجة الحموي ،مرجع سابق، ص470.

ويدخل في باب الجهل الذي يستغله إبليس الإعراض عن الدنيا والمبالغة في التضييق على النفس، فقد روى أحد المتصوفة أنه رأى في منامه إبليس، فقال له: «تعال، ما لك؟ فقال: إيش أعمل بكم، وأنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس! فقلت له: وما هو؟ قال: الدنيا. فلما ولى عنى، التفت إلي، وقال: غير أن لي فيكم لطيفة. فقلت له: وما هي؟ قال: صحبة الأحداث» [1].

تكشف الحكاية عن إعراض إبليس عن الصوفي وعدم الاستجابة لدعوته إلى الحوار؛ لأن الشيطان أدرك أنه عاجز عن غواية أمثاله ممن زهدوا في ملذات الحياة ونعيمها بما في ذلك ما أحله الله(الزواج). لقد كان بإمكان إبليس أن ينصرف إلى حاله لكنه أبى إلا أن يخبر محاوره بالشباك التي ينصبها للصوفية المتشددين في العبادة، ويتعلق الأمر هنا بمصاحبة الأطفال[2].

وهكذا يتبين أن إبليس لا يملك شباكا واحدة وإنما هي شباك متعددة ينتقي منها ما يناسب ضحيته، فهو يختار الأنسب منها لكل واحد، وهو لا يلقي بطعمه جزافا إلا وهو متيقن بأن ابن آدم واقع –لامحالة– في شباكه.

2–إبليس الواعظ:

لم يكن إبليس دائما هو الذي يتربص بالبشر بل كان البعض منهم يبادر إلى البحث عنه والخروج للقائه طلبا لنصحه والنهل من معرفته، ومن الأمثلة على ذلك أن أبا نواس قصد إبليس كي يعضه، وعن ذلك يقول[3]:

[1] ابن عساكر الدمشقي، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 2012، ج3، ص 74.

[2] ينظر: تلبيس إبليس، ص 257.

[3] أبو نواس، مرجع سابق، ص 267.

قلْ للعـذولِ بحانَةِ الخَمّـار	والشّرْبُ عند فصاحةِ الأوْتـارِ
إني قصَـدْتُ إلـى فَقِيـهٍ	عـالِمٍ متنسّكٍ، حَبْرٍ من الأحْبَارِ
متعمّقٍ في دِينهِ مُتَفَقّهٍ	متبصّرٍ فـي العلمِ والأخْبَـارِ

لقد توجه الشاعر بخطابه إلى رفاقه السكارى الذين لاموه على إسرافه في شرب الخمر والاستمتاع بالغناء، فدافع عن موقفه، وكشف لهم أنه لم يفعل ذلك إلا بعد استشارة أهل العلم. إن أبا نواس لم يقصد عالما متواضعا بل اختار من هو متعمق في الدين، ملم بحيثيات الأصول والفقه ممن ظهرت عليه علامات التقوى والصلاح، وقد سأل أبو نواس الشيخ عن مجموعة من المسائل المتصلة بالعبادات والأخلاق من قبيل شرب الخمر والصلاة والحج والزكاة والأمانة والزواج، فجاءت أجوبة الشيخ متوافقة مع أهواء الشاعر ورغباته الدفينة؛ فالشيخ حرم على الشاعر شرب الخمر لكنه أجاز له الارتواء ببعض الكؤوس منها، أما فيما يتعلق بالصلاة فقد أكد إبليس أنها فرض واجب غير أنه أباح لأبي نواس أن يجمع صلاة عام كامل ثم يقضيها في يوم واحد[1].

لقد وقع اختيار أبي نواس على الواعظ المناسب الذي شجعه، بشكل غير مباشر، على الانغماس في حياة اللهو والمجون والزندقة، ولا نرى من جانب أبي نواس أي اعتراض على الشيخ أثناء الحوار، وهو ما يؤكد أن الفتاوى المقدمة جاءت متوافقة مع مذهبه في الحياة.

ولم يكن أبو نواس الوحيد الذي قصد إبليس، فأبو القاسم الجنيد طلب من الله أن يريه إبليس، وقد امتد هذا الطلب طيلة خمس عشرة سنة، وهو ما يؤكد أن أبا القاسم

[1] أبو نواس، مرجع سابق، ص 267.

كان صادقا في دعوته تلك. ولم تذهب توسلات أبي القاسم سدى؛ فقد استجاب الله لدعوته حيث باغته إبليس في منتصف أحد أيام الصيف، فدخل دار أبي القاسم وقد بدت عليه أمارات الوقار والزهد، وكان يرتدي برنسا «من الشعر وعليه قميص من الصوف وبيده عكاز» [1]، ولم يكن أبو القاسم ليضيع الفرصة التي انتظرها دهرا طويلا، فما إن اتخذ إبليس مجلسه حتى سأله قائلا: «بم تستضل الناس؟ »[2].

لقد جاء السؤال موجزا ومباشرا، ولكنه سؤال عادي، ولم يكن صاحبه في حاجة إلى كل ذلك العناء في الإلحاح لرؤية إبليس؛ إذ إن النصوص الدينية من قرآن وسنة فضلا عن مؤلفات الفقهاء والعلماء، كانت كفيلة بالإجابة الشافية عن هذا السؤال وتوضيح جميع الجوانب المتعلقة به، لكن يبدو أن أبا القاسم لم يكن مطمئنا لما قرأه أو سمعه، إنه يريد أن يسمع الإجابة من فم إبليس، ولكن ألم يدر بخلد أبي القاسم أن إبليس قد يكذب عليه أو أن يراوغ في الإجابة أو أن يخدعه. قد يكون هذا حال إبليس عندما يكون هو المبادر لاعتراض سبيل ابن آدم (كما هو الحال مع الخليفة)، لكن عندما ينعقد اللقاء بناء على طلب الإنسان، ويكون هذا الإنسان على قدر من العلم والإيمان، فإبليس لم يكن ليتردد في الإجابة بصدق. وقد جاء رد إبليس–على غرار السؤال– موجزا ومختصرا، ولم ينطق بأي كلمة بل اكتفى بإخراج رغيف من كمه[3].

[1] صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أبو عبد الله جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 2010، ج6، ص 6.

[2] المصدر نفسه، ص7.

[3] صلاح الدين الصفدي، مرجع سابق، ص7.

لقد كان الجواب واضحا ومقنعا بحيث لم يطلب أبو القاسم أي توضيح بل سارع إلى طرح سؤال آخر يتعلق بكيفية تزيين إبليس للمعاصي وإظهارها بمظهر الأفعال الحسنة للبشر، فما كان من إبليس إلا أن أخرج مرآة وقال: «أريهم سيئاتهم حسنات بهذه المرآة»[1].

كما هو الحال في المرة الأولى، جاء الجواب مختزلا، لكن الأداة هذه المرة لم تكن من صنع البشر، إنها أداة عجيبة تعكس الأشياء بحيث يلتبس على الإنسان إدراك الحق من الباطل أو التمييز القائم بين الشر والخير، ولذلك تخدع المرآة البشر، فتجعلهم يقبلون على ارتكاب المعاصي وهم يظنون أنها حسنات.

وقد كان سهل بن عبد الله التستري أوفر حظا من أبي نواس وأبي القاسم؛ إذ إن لقاءه بإبليس كان مصادفة، وعن ذلك يقول: «لقيت إبليس مرة، فعرفته وعرف مني أنني عرفته، فوقع بيني وبينه مناظرة»[2].

يشير الخبر إلى الحدث دون تحديد زمان وقوعه أو مكانه غير أن الغريب هو أن التستري تعرف على إبليس، وقد سكت الراوي عن العلامات التي اهتدى بها للتعرف عليه. ومن اللافت للانتباه في هذا الخبر أن الطرفين دخلا في مناظرة دون التمهيد لها، وكأنهما كان على علم واستعداد مسبقين بها.

م يكن لقاء التستري بإبليس طلبا للنصح أو طمعا في أن يمده بالمعرفة وإنما جاءه مدافعا عن وجهة نظره بخصوص مجموعة من المسائل الدينية. وقد سكت الصوفي عما دار في معظم المناظرة، واكتفى بوصفها بشكل مقتضب حيث ظل كل طرف

[1] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[2] ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 2011، ج4، ص 435.

متمسكا برأيه، ولم يورد الراوي سوى الحلقة الأخيرة من المناظرة التي ارتبطت برحمة الله، وكيف أنها وردت مرتين في آية واحدة من سورة الأعراف حيث وردت الرحمة في المرة الأولى مطلقة وفي المرة الثانية مقيدة[1]. وقد أجاب إبليس عن السؤال وهو مبتسم هادئ، ودعم رأيه بالحجج الدامغة التي لم يجد معها التستري بدا من الاقتناع، وكانت تلك الحجج من القوة التي زرعت الذهول والحيرة في اعتقاد السائل الذي قال: «فرجعت إلى نفسي، وغصصت بريقي، وأقام الماء في حلقي، وما وجدت شيئا له جوابا ولا سددت في وجهه بابا» [2].

كان الصوفي يعتقد أنه بلغ درجة من العلم لم يعد معها في حاجة إلى التلمذة أو الاستزادة من المعرفة، فكان بذلك في حكم الجاهل، وهو ما تكشف له من خلال المناظرة حيث عجز التستري عن إبطال حجج إبليس، ولذلك قرر الصوفي الاستفادة من فشله في المناظرة ،وعزم على الاستزادة من العلم و طلبه بصرف النظر عن مصدره أو قائله[3].

3-إبليس رمز الكبرياء والعزة:

تميل الشعوب والأمم إلى ربط بعض الخصال النبيلة بأفراد يصبحون-مع مرور الوقت- رمزا يختزلون تلك الخصال، وتختلف طبيعة المصادر التي يتم انتقاء الرمز/النموذج منها؛ ففي الثقافة الإسلامية، قد يكون المصدر هو النص الديني كما هو الحال بالنسبة للقمان الذي اقترن بالحكمة، والنبي يوسف الذي تجسدت فيه

[1] يقول عزو جل: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156)

[2] ابن عربي، مرجع سابق، ص 436.

[3] ابن عربي، مرجع سابق، ص 436.

العفة، وقد يكون النموذج البشري إنسانا عاديا وليس نبيا كما هو الشأن بالنسبة للسمؤال الذي غدا رمزا للوفاء وأبي الحاتم الطائي الذي اتخذه العرب نموذجا للكرم والعطاء. لكن المثير للاستغراب هو أن يتحول إبليس، الذي يرمز عادة إلى الشر، إلى نموذج يحتذى به من طرف الإنسان. قال الشاعر سليمان الأعمى في سياق الحديث عن قصة إبليس وآدم[1]:

يأبى السجود له من فرط نخوته وقد تحول في مسلاخ قواد

هكذا يتم تأويل عصيان إبليس للأمر الإلهي، ورفضه السجود لآدم على أنه نخوة وعزة، وبذلك يتحول المذنب إلى رمز للإباء والكبرياء، وقد سار بعض الشعراء على نهج سليمان الأعمى، فرأوا أن إبليس هو أجدر مخلوق لأن يتخذ نموذجا للكبرياء، ومن هؤلاء الشعراء صردر الذي يقول[2]:

جلسة في الجحيم أحرى وأولى من رحيل يفضي إلى تدليس

ففرارا من المذلة في آ دم كان العصيان من إبليس

كما دافع ابن الصقر الواسطي عن موقف إبليس بقوله[3]:

لست أرضى من فعل إبليس شيئا غير ترك السجود للمخلوق

[1] أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، ص 32.

[2] خليل بن أبيك الصفدي، تمام المتون بشرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1، 1960، ص 116.

[3] خليل بن أبيك الصفدي، مرجع سابق، ص 116.

ولا ينبغي أن يفهم من هذه الأبيات أن أولئك الشعراء أقروا بصدق دعوى إبليس أو أنهم ساندوا عصيانه للأمر الإلهي بل يجب أن يفهم موقفهم من خلال نظرتهم إلى جوهر الفعل (الإبليسي)أي التمسك بالقرار والثبات عليه وعدم العدول أو التراجع عنه مهما كان حجم الضغوط الممارسة من طرف المحيط الخارجي، فذلك التمسك يعكس عزة النفس ورفضها الخضوع للهيمنة والعبودية.

كان الصوفي الحجاج ممن يرون أن التمسك بالرأي الشخصي والثبات عليه من شيم الأقوياء، وكان يعتقد أن فرعون وإبليس نموذجان في هذا الباب، فقد ظلا متمسكين بموقفيهما في أصعب اللحظات (الغرق، الطرد من الجنة)، يقول الحلاج: «فصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون، وإبليس هدد بالنار وما رجع عن دعواه، وفرعون أغرق في اليم وما رجع عن دعواه، ولم يقر بالواسطة أبدا، وإن قتلت أو صلبت أو قطعت يداي ورجلاي ما رجعت عن دعواي»[1]. وبذلك تتحول رموز الشر والغطرسة في النصوص الدينية إلى رموز للكبرياء والشجاعة عند الحلاج الذي ما كان له أن يلجأ لهذه الرموز إلا لأنه كان يعتقد أن تجربته تشبه-في جوهرها- تجربتي فرعون وإبليس.

4-إبليس في الميزان:

عرفت الدولة الإسلامية، في أواخر العصر الأموي، تنوعا عرقيا وثقافيا هامين كان وراءهما اعتناق مجموعة من الأجناس الأعجمية الإسلام. وقد انصهرت العناصر الجديدة في المجتمع العربي غير أن سياسة الدولة الأموية- والعباسية بعد ذلك -أدت

[1] الحسين بن منصور بن يحيى، ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وذكر مقتل الحلاج لابن زنجي، تحقيق، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،2013، ص 112.

إلى تهميش تلك العناصر، ومما فاقم من معاناة الأعاجم سياسة العنصرية اتجاههم التي تتمثل في افتخار بعض العرب بنسبهم ولغتهم وثقافتهم، واحتقارهم للثقافات الأجنبية.

لم يقف الأعاجم المسلمون مكتوفي الأيدي بل حاولوا الدفاع عن أنفسهم، فأخذوا-بدورهم-يتباهون بأصولهم غير العربية، كما أنهم وجهوا سهام نقدهم إلى العرب وثقافتهم، وقد بلغ الصراع بين الطرفين أوجه في العصر العباسي، وأطلق على هذا الصراع الثقافي اسم الشعوبية. ومن الشعراء الذين تصدوا للعرب بشار بن برد الذي هجاهم قائلا[1]:

إبليسُ خيرٌ من أبيكم آدم	فتبيَّنوا يا معشر الأشرار
النّار عنصره، وآدم طينةٌ	والأرض لا تسمو سمو النار

إن تفضيل بشار لإبليس على آدم كان بمثابة قلب للموازين المتعارف عليها، وهو بذلك يوجه نقده للعرب المعتزين بأصولهم. تقع الموازنة بين طرفين: العنصر الفارسي من جهة والعنصر العربي من جهة أخرى، وقد تعززت الموازنة باستحضار عنصر طبيعي اشتهرت به كل ثقافة؛ فالنار المقدسة تحيل على الديانة الزرادشية التي ظهرت في بلاد فارس[2]، أما العرب فكانت بلادهم الصحراء التي تمسكوا بالعيش فيها رغم قساوتها وكأن جذورهم ممتدة في أرضها، والعنصران الطبيعيان السابقان أي النار والأرض يحيلان على أول مخلوق اشتق منهما؛ فإبليس كائن ناري أما آدم فخلق من

[1] المعري، رسالة الغفران، مرجع سابق، ص 310.

[2] ينظر: كتاب الحيوان للجاحظ، ج5، ص. ص 66-67.

طين الأرض. وهكذا يمكن القول إن تفضيل بشار لإبليس على آدم إنما أريد به التأكيد على تفوق الفرس على العرب وليس الفخر بالمجوسية على الإسلام.

يعد الإمام الحسن بن رشيق ممن استحضروا إبليس في الشعر على سبيل الموازنة، فقد روي أن الشاعر الحصري بن تميم القيرواني أراد أن يؤلف كتابا يرتب فيه الشعراء حسب أعمارهم[1]، فلم يرق ذلك للحسن بن رشيق فأرسل إلى مؤلف الكتاب بيتين يقول فيهما[2]:

مهلا أبا إسحاق بالعالم وقعت في أضيق من خاتم

لو كان فضل السن مندوحة فضل إبليس على آدم

لقد أراد الشاعر أن ينبه المؤلف إلى أن الترتيب الذي ينبغي أن يبني عليه كتابه هو التفوق والإبداع وليس سن الشاعر، إذ لو اعتمد المؤلف معيار السن وليس الإبداع لجاء الحسن بن رشيق في الطبقات المتأخرة من الكتاب، وقد عزز الشاعر موقفه بأن ضرب للمؤلف مثالا مستمدا من الثقافة الإسلامية، فنبهه إلى أن قدم إبليس في الوجود لم يشفع له شيئا حيث أنه أمر بالسجود لآدم الحديث الخلق. وقد اقتنع المؤلف بحجة الشاعر، فبعد أن بلغه البيتان السابقان، اعتذر من الشاعر بل إنه أعرض عن تأليف الكتاب جملة[3].

[1] صلاح الدين الصفدي، مرجع سابق، ج4، ص 371.
[2] خليل بن أبيك الصفدي، مرجع سابق، ص 117.
[3] خليل بن أبيك الصفدي، مرجع سابق، ص 117.

4-إبليس الملهم:

أ-إبليس ملهم الفنون:

دأب بعض الشعراء الجاهليين على نسبة بعض قصائدهم إلى الجن والشياطين، فكانوا يؤكدون أن أشعارهم إنما هي وحي، ولم يكن هذا الأمر ينقص من القيمة الفنية للقصيدة أو يقلل من الجانب الإبداعي للشاعر بل على النقيض من ذلك، كان الشعراء يتباهون بنسبة أشعارهم إلى الجن والشياطين ولم يجدوا أي حرج في ذلك، ويلاحظ أن هذه الظاهرة اقترنت بشكل رئيس بكبار الشعراء حيث ادعى كل واحد منهم أن له قرينا يعينه على النظم، فقد زعم بعضهم أن «لافظ بن لاحظ صاحب امرئ القيس، وهبيد صاحب عبيد الأبرص.. وهاذر بن ماهر صاحب زياد الذبياني»[1].

وقد ظلت هذه الظاهرة مستمرة بعد ظهور الإسلام حيث لم يتوان بعض الشعراء عن ربط قصائدهم بالشياطين بما في ذلك إبليس الذي جعله جرير ملهما له، وعن ذلك يقول الشاعر[2]:

إني ليلقي عليّ الشعر مكتهل من الشياطين إبليس الأباليس

لم يعد إبليس -كما هو الحال في النصوص الدينية- رمزا للشر بل غدا ملهما للشعراء، وقد كان هؤلاء موقنين أن الإلهام الشعري مجرد خرافة، لكنهم تشبثوا بها، ورددوها على مسامع الناس؛ لأن هذا الأمر كان يضفي على الشعر نوعا من السحر

[1] مصطفى صادق الرفاعي، تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، ط1، 1997، ج2، ص 53.

[2] الزمخشري أبو القاسم جار الله، ربيع الأبرار وفصوص الأخبار في المحاضرات، تحقيق طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، ط1، 2006، ج1، ص 113.

الذي يفتن النفوس؛ فنسبة الشعر إلى الكائنات الخارقة كان ضربا من الحيلة الفنية لإضفاء نوع من الهالة على الإبداع الفني، فكيف إذا أسند الشعر إلى أب الشياطين و سيدهم؟، ومن هنا فالشعر الذي يوحي به إبليس إلى صاحبه هو شعر يفوق قيمة أي شعر آخر بما في ذلك القصائد التي توحي بها الجن أو صغار الشياطين، وقد كان جرير يفخر بنسبة قصائده إلى إبليس، وإن لم يذكره بشكل صريح، وعن ذلك يقول[1]:

رأيت رقى الشيطان لا يستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا

لقد ألقى جرير قصيدته بين يدي الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد استغرب الشاعر من موقف الخليفة الذي لم يتأثر بالقصيدة، ولم يعجب بها، وكان الشاعر يتوقع خلاف ذلك؛ لأن ملهمه ليس شيطانا عاديا بل هو أرقى الشياطين أي إبليس، والأحرى بمن يستمع إلى مثل هذا الشعر أن يطرب وينفعل.

ويبدو أن بعض الأدباء آمنوا-على سبيل التخييل- أن إبليس هو ملهم جرير، ومن أولئك الأدباء بديع الزمان الهمذاني؛ ففي في المقامة الإبليسية، التقى عيسى بن هشام بشيخ غريب، وتبادلا أطراف الحديث، فطلب الراوي من الشيخ أن ينشده إحدى قصائده، فلما فعل ذلك، استنكر الراوي أن تكون القصيدة من إبداع الشيخ، وخاطبه قائلا: «يا شيخ هذه القصيدة لجرير قد حفظتها الصبيان، وعرفها النسوان، وولجت الأخبية، ووردت الأندية» [2]، ولم يكن الشيخ المتنكر ليجادل الراوي بخصوص

[1] الزمخشري، مرجع سابق، ص 114.

[2] بديع الزمان الهمذاني، مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3، 2005، ص 209.

نسبة القصيدة إليه؛ لأنه لم يكن سوى إبليس الذي عرف عنه أنه ملهم جرير، فإبليس والشاعر شخص واحد.

لم يكن كل الشعر الذي يوحي به إبليس دائما شعرا جيدا؛ فقد «أنشد رجل الفرزدق شعرا، وقال: كيف تراه؟ فقال: لقد طاف إبليس بهذا الشعر في الناس، فلم يجد أحمق يقبله سواك»[1]. غير أنه لا ينبغي التسليم بموقف الفرزدق، فقد عرف عن هذا الشاعر عداوته الشديدة لجرير، واشتهرا بنقائضهما التي انتقد فيهما كل واحد خصمه نقذا لاذعا، ولذلك يمكن القول إن نقد شعر الفرزدق لشعر الرجل إنما هو موجه، في الحقيقة، إلى جرير الذي كان يدعي أن إبليس يعينه على النظم، ومن تم يعدو جريرا –مثل الرجل–هو الآخر أحمقا ومغفلا؛ لأنه يقبل من إبليس قصائد يرفضها الشعراء الفحول لافتقادها الجودة.

ويطالعنا في رسالة الغفران موقف غريب لإبليس من الشعر؛ فإذا كان بعض الشعراء ينسبون قصائدهم إلى الشياطين، فإن إبليس قد تبرأ من الشعر والأدب عموما يوم القيامة؛ لأنه يعتقد أن صناعة الشعر «تهب غفة–أي بلغة من العيش– لا يتسع بها العيال، وإنها لمزلة بالقدم» [2]. لقد تغير موقف إبليس من الشعر، فبعدما كان يلهمه أصبح ينظر إليه بازدراء، غير أنه لم يدرك هذه الحقيقة في الدنيا وإنما في الآخرة، والملاحظ أن هذا الموقف الجديد لإبليس من الشعر لم يستند بشكل رئيس إلى معيار أخلاقي أو ديني بالأساس بل كان معياره ماديا دنيويا؛ فصناعة الأدب لا تورث مالا ولاجاها، وصاحبها يعيش قي فقر مدقع، ولا يكسب من حرفته إلا ما

[1] الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 2009، ج1، ص93.

[2] المعري، مرجع سابق، ص309.

يسد به الرمق، ولذلك يبقى دائما متكسبا بأدبه، محتاجا إلى الأغنياء كي يجودوا عليه بمالهم، فيعيش بذلك الأديب عيشة ذليلة.

ويعد الغناء-بحكم ارتباطه بالشعر- أحد الميادين التي شملها إلهام إبليس، فقد ادعى إسحاق بن إبراهيم الموصلي أن اللون الموسيقي الذي يعرف باسم الغناء الماحوزي لم يكن إلا إلهاما إبليسيا لأبيه، وأن ذلك تم في يوم سبت عندما كان إبراهيم الموصلي مختليا بجواريه في المنزل، ولم يكن معه أحد، فإذا به يفاجأ بـ «بشيخ ذي هيئة وجمال، عليه خفان قصيران، وقميصان ناعمان، وعلى رأسه قلنسوة، وبيده عكازة مقمعة بفضة، وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار»[1]. وقد هم الرجل بطرد الشيخ لولا أنه سمعه يعزف ألحانا جميلة ساحرة ثم قال لصاحب البيت: «يا إبراهيم، هذا الغناء الماحوزي، خذه وانح نحوه في غنائك، وعلمه جواريك»[2].

ب-إبليس ملهم الحب

ساد في بعض المجتمعات القديمة اعتقاد بتعدد الآلهة وأن لكل إله وظيفة محددة، ومن بين تلك الوظائف إلقاء الحب في قلوب الناس؛ ففي بلاد الرافدين، كان الناس يؤمنون بأن عشتار هي آلهة الحب أما في الحضارة الإغريقية فقد اشتهرت كل من أفروديت وإيروس بالجمع بين المتحابين. وقد آمن بعض العرب في الجاهلية أن الصنم ود[3] هو الذي يلهم مشاعر الحب للعشاق.

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت-لبنان، ط3، 2008، ج5، ص 150.

[2] المصدر نفسه، ص 152.

[3] يرى بعض المستشرقين استناداً إلى معنى كلمة "ودّ" أن هذا الصنم يرمز إلى الودّ، أي الحبّ وانه صنو للإلهيين "جيلGil "، و "بحد Pahad "عند الساميين. ويستندون في رأيهم هذا إلى بيت للنابغة هو:

ويبدو أن الإسلام لم يمنع الشعراء من تبني هذا المعتقد، فأبو نواس يقول في إحدى قصائده[1]:

لَمّا جَفَاني الحبِيبُ وامتَنَعَتْ	عنّي الرّسالاتُ منْهُ والخَبرُ
اشْتَدّ شوْقي فكادَ يقْتُلُني	ذكْرُ حَبيبي، والهمّ والفكَرُ
دعوتُ إبليسَ ثمّ قلتُ لهُ	في خلْوَةٍ والدّموعُ تَنْهَمِرُ
أما تَرَى كيْفَ قد بُليتُ	وقدْ أقْرَحَ جفْني البكاءُ والسّهَرُ

لم يذكر أبو نواس اسم محبوبته التي أعرضت عنه، و لكن المرجح أن الأمر يتعلق بالجارية جنان التي شغفته حبا[2]، والمثير للانتباه أن الشاعر فضل أن يشكو أمره لإبليس وليس إلى أحد ندمائه ممن قد يخففوا عنه ألمه أو ممن قد ينقلوا شكواه إلى الحبيبة. فما السبب في ذلك؟

يقول أبو نواس في القصيدة نفسها[3]:

إنْ أنْتَ لم تُلْقِ لي المودّةَ	في صدْرِ حبيبي، وأنْتَ مُقتدِرُ

حياك ودّ وأنى لا يحل له لهو النساء وان الدين قد عزما

وهناك من يرى وجود صلة بين "ود" و Erosالصنم اليوناني، ويرى أنه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك، وعبد عند العرب (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية الجزء الثاني 1980م الفصل التاسع والستون – الاصنام).

[1] أبو نواس، مرجع سابق، ص 291.

[2] ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، ط8، د.ت، ج3، ص 233.

[3] أبو نواس مرجع سابق، ص291.

لا قلْتُ شعْراً ولا سمعْتُ غِناً	ولا جَرَى في مَفَاصِلي السَّكَرُ
ولا أزالُ القُرْآنُ.. أدرُسُهُ	أرُوحُ في دَرْسِهِ وأبْتَكِـرُ
وألزَمُ الصّوْمَ والصّلاة	وَلا أزالُ، دَهْري بالخيرِ آتمِرُ
فما مَضَتْ بعْدَ ذاكَ ثالِثَةٌ	حتى أتاني الحَبيبُ يعتذِرُ

إن أبا نواس يهدد إبليس ويتوعده بأنه إن لم يلق المودة في قلب المحبوبة، فإنه سيترك المجون وقول الشعر، ويستعيض عن ذلك بتلاوة القرآن والتزام الطاعات طيلة حياته المتبقية.

كان الأمر سيبدو طبيعيا-ولو على مستوى التخييل- لو أن الشاعر تودد إلى إبليس وصاغ طلبه في شكل يتناسب مع مقام المخاطب، فأما أن يكون الشاعر هو الآمر وإبليس هو المأمور فهذا انقلاب للأدوار المعهودة. ولم يكن الشاعر ليوجه تهديده إلا لأنه واثق من قدرته على تنفيذ تهديده. لكن لماذا قد يخشى إبليس تهديد الشاعر له؟

لو أن فردا تاب ورجع عن غيه فإن ذلك لن يضر إبليس في شيء، فما قيمة فرد تائب والحال أن إبليس قادر على أن يغوي أعدادا كبيرة من البشر.

ينبغي أن نأخذ في الحسبان أن أبا نواس كان من «أعاجيب عصره في الشعر، إذ حضي بملكات شعرية بديعة»[1]، وكان لشعره وقع السحر على معاصريه سواء نخبة

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج3، ص 227.

المجتمع أو عامة الناس، وقد ارتبطت أفضل قصائد الشاعر بالمجون والخمريات بما اشتملت عليه من تغزل بالغلمان وحث على الخلاعة والفجور. وقد كان لتلك القصائد تأثير كبير في المتلقين، ولذلك فتوبة أبي نواس كانت ستؤثر-لامحالة- على فئة كبيرة ممن كانوا يمجدون الشاعر ويعشقون قصائده، وبالتالي فتلك التوبة ستؤدي- بلا شك- إلى توبة عدد كبير من الناس. ولم يكن أبو نواس كاذبا بخصوص عزمه على هجر الخمر ودراسة القرآن أو الفقه، فقد عرف عنه أنه كان في بداية حياته «عالما فقيها، عارفا بالأحكام والفتيا، بصيرا بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القران ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهة» [1].

كان بإمكان أبي نواس أن يوجه طلبه لأي شيطان عادي، ولكن لما كان الأمر صادرا عن فرد مميز له وزنه وثقله في المجتمع الإسلامي، فقد كان من الطبيعي أن يوجه الأمر إلى كبير الشياطين الذي لم يتوان عن تنفيذ طلب الشاعر لأنه كان مدركا حجم الخسارة التي سيتكبدها في حال توبة أبي نواس.

خاتمة:

شكلت المدونة الأدبية التراثية أحد المصادر الهامة التي أسهمت في تشكيل صورة إبليس في مخيلة الفرد الإسلامي، وكان للخيال الأدبي دور بارز في تقديم صورة مغايرة لإبليس عن تلك التي قدمتها النصوص الدينية أو الكتابات الفقهية، ومن المميزات التي اختصت بها صورة إبليس في التراث الأدبي الإسلامي ما يلي:

-كان إبليس يظهر-غالبا- في شكل شيخ وقور، تبدو عليه علامات الصلاح والتقوى، وكانت هذه إحدى الحيل للإيقاع بضحاياه.

[1] ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فرج، دار المعارف، مصر،1976، ط3، ص201.

-حضر إبليس في أماكن وأزمنة مختلفة بل حضر أيضا في المنام، ولم تجد معظم الشخصيات صعوبة كبيرة في التعرف عليه؛

- لم يكن إبليس دائما هو المبادر إلى لقاء الإنسان، حيث إن بعض الأفراد بحثوا عنه وسعوا إلى لقائه؛

-كان وعظ إبليس للناس مجرد خديعة؛ لأن الخير الذي كان يدل الناس عليه كان مجرد طعم لاستدراجهم نحو الخطيئة؛

- لم يعد إبليس مرتبطا بالخطيئة بل أصبح رمزا للكبرياء وملهما للشعر والموسيقى والحب.